

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّةٌ على المسلمين ، فهم في ذاتهم ضعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قائمة من مساندة انصارهم واتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴾ [الأنعام]

فالتفريق مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين .

وما زالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أن نعود كما كنا ، عباداً لله مُستقيمين على منهجه ، مُحْكَمِينَ لكتابه ، وهذا رَعْدٌ سيحقق إن شاء الله ، كما ذكرت الآية التالية :

﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَقْبِرُوا أَجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۗ ﴾ [الأنعام]

وما زال الخطاب مُوجَّهاً إلى بني إسرائيل ، هاكم سَنَّةٌ من سنن الله الكونية التي يستوى أمامها المؤمن والكافر ، وهي أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، وَمَنْ أَسَاءَ فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على

(١) تَبَّرَ : دمره وأهلكه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ الْمُتَبِّرِينَ مَا ظَنُّكُمْ لَهُ رَبَّ أَلَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف]

[الأعراف] مُتَبِّرٌ : اسم مفعول أي دُمِّرَ مَهْلِكُهُ . [القاموس القويم ١/ ٩٧] .

المنهج ، أر على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله ؛ لأن هذه سنة كونية ، من استحق الغلبة فهي له ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون يتخلفون عن متج الله .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ.. (٧)﴾ [الإسراء]

فيه إشارة إلى أنهم في شك أن يُحسنوا ، وكان أحدهم يقول
للآخر : دَعَكَ مِنْ قَضِيَةِ الْإِحْسَانِ هَذِهِ .

فإذا كانت الكرة الآن لليهود ، فهل ستنزل لهم على طول الطريق ؟ لا .. لن تظل لهم العكبة ، ولن تدوم لهم الكرة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ۖ ﴾ (٧) [الإسراء]

أى : إذا جاء وقت الإفساد الثانية لهم ، وقد سبق أن قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ تَفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ۖ ﴾ (٢) ﴿ [الإسراء]

وبيئنا الإفساد الأول حينما قطعوا عهدهم مع رسول الله ﷺ في المدينة .

وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا
يقظة وصحوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها
سنكون لنا الغلبة والقدرة ، وستعود لنا الكرامة على اليهود .

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلُوا وَجُوهَكُمْ﴾ (٧) ﴿الإنشاء﴾

ای : نُلَقِّقْ بِهِمْ مِنَ الْأَذَى مَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؛ لِأَنَّ

الوجه هو السعة المعبّرة عن فوازح النفس الإنسانية ، وعليه تبدو
الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما في المرء ، وإساءته أبلغ أنواع
الإساءة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ
مَرَّةٍ ۚ ﴾ [الإسراء] ٧ : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى ،
وسينقذونه من أيدي اليهود .

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [٧]

[الإسراء]

المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخول المسلمين للمسجد الأقصى
أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم
يكن الأقصى رقتها في أيدي اليهود ، بل كان في أيدي الرومان
المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكن إساءة لليهود ، وإنما كان إساءة
للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو في حوزة
اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم
المسجد الأقصى ، ونطهره من رجسهم .

ونلاحظ كذلك في قوله تعالى : ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾ [٧]
[الإسراء] أن القرآن لم يقل ذلك إلا إذا كان بين المذولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لنُبوءة القرآن ،
وكان الحق سبحانه يريد أن يلفتنا : إن أردتم أن تدخلوا المسجد
الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحووا معه .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧)

كلمة الأخيرة تدلُّ على أنها المرة التي لن تتكرر ، ولن يكون لليهود غلبة بعدها .

وقوله تعالى: ﴿وَلْيُحَرِّمُوا مَا خَلَقُوا تَحْرِيمًا﴾ (٧)

يَتَبَرُّوا : أى : يَهْلِكُوا وَيُدْمَرُوا ، وَيُخْرَبُوا مَا أَقَامَهُ الْيَهُودُ وَمَا بَنَوْهُ
وَشَيَّدُوهُ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَضَارَةِ الَّتِي نَشَاهِدُهَا الْآنَ عِنْدَهُمْ .

لكن فلاحظ أن القرآن لم يقل : ما علوكم ، إنما قال ﴿ مَا عَلُوا ﴾
ليدل على أن ما أقاموه وما شيّدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة من
وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم
قائمة ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه عنهم :

﴿ تَضَرَّبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّكْرُ أَنْ مَا تَقُولُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحِمْزٍ مِنَ
النَّاسِ... ﴾ (١٦٢)

فهم أذلاء أيتما وجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون في ظله ، كما كانوا في عهد رسول الله ﷺ في المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهوية لا تذوب في غيرهم من الأمم ، ولا يتخبطون في البلاد التي يعيشون فيها ؛ لذلك نجد لهم في كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميلٌ للبناء والقشيد ؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَاجِدَ ﴾ (١٦٨)

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة العزالية ، أما الآن ، وبعد أن أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حد زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

وتحن الآن ننتظر وعد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تتصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما تدخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لنعود لنا صفة العباد ، وتكون أهلًا لتصرة الله تعالى .

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ۖ ﴾ (٧)

[الإسراء]

فهو وعد أت لا شك فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصها في آخر السورة في قول تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مِنْ بَعْدِهِ ابْنِي إِسْرَائِيلَ أَنْسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَغِيفًا ۖ ﴾ (١٠١)

[الإسراء]

والمقابل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقيق وعد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قلنا لبني إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكن فلأبد أن يُحدد لك

(١) اللغيف : الجمع العظيم من أغلاط شتى يسهم الشريب والنفث ، والمطبخ والحامس ، والقوى والضعيف . [لسان العرب - مادة : لف] .

سورة الأعراف

٨٣٦٧

مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد .. اسكن القاهرة - اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض !! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أن يظفروا بمعثرين في جميع الأنحاء ، مُفْرَقِينَ في كل البلاد ، كما قال عنهم : ﴿ رَفَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا .. ﴾ (١٦٨) [الأعراف]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ ^(١٦٩) سُوءَ الْعَذَابِ .. ﴾ (١٦٧) [الأعراف]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكنة ونكد بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير ؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أمله إلا حين يُهَاجَر الإسلام ، فبساعة أن يُهَاجَر تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبه في الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس ، فلو لم تُكَّر الحيوية الإيمانية لَبُهِتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فوجودهما حكمة ؛ لأن الكفر الذي يشقى الناس به يُلْغِي الناس إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة

(١) سامية الأمر : كلفه إياه . وقال الزجاج : أولاه إياه ، وأكثر ما يستعمل في العذاب والهرم والظلم . [لسان العرب - مادة : سوم] .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ وأمه إلى يوم القيامة . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٥٩) .

لهم إلا في الإيمان بالله . ولو لم يكن الكفر الذي يؤذي الناس ويقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل في الكون يعض الناس ويزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحى إليهم بفكرة الوطن القومي ، وزيّنوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطنًا يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن في قيام دولة إسرائيل وتجمع اليهود بها نكايّة في الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سيحاطه وتعالى حين يريد أن تضربهم الضربة الإيمانية من جنود مرصوفين بأنهم : ﴿عِبَادًا لَنَا...﴾ (٥)

بلغتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مفترقون مبعثرون في كل أنحاء العالم ، فلن نحارب في العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حي . فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، في كل بلد شاردة منهم ؟

إذن : ففكرة التجمع والوطن القومي التي نادى بها بلقر وابتدئها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة في الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتسهّل علينا تتبعهم وتمكّننا من القضاء عليهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَهِيبًا﴾ (١٠٤)

[الإسراء]

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٣٦٩

أَي : أَتَيْنَا بِكُمْ جَمِيعاً ، نَضْمُكُمْ بِكُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَهَذِهِ إِذَنْ
بُشْرَى لَنَا مَعِشَرِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ الْكُرَّةَ سَتَعُودُ لَنَا ، وَأَنَّ الْغَلْبَةَ سَتَكُونُ
فِي النِّهَايَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَذَا الْوَعْدِ إِلَّا أَنْ
نَعُودَ إِلَى اللَّهِ ، وَنَتَّجِعَ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا^(١)
تَضَرَّعُوا .. ﴾ (٤٣) ﴿

[الأنعام]

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ هُنَا : ﴿ وَعَدُ الْآخِرَةِ .. ﴾ (٧) ﴿

[الأنعام]

هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوُّوْا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٧) ﴿

[الأنعام]

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ عَسَىٰ رِيكُكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا ۖ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا^(٢) ﴿

و (عَسَى) حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى الرَّجَاءِ ، وَكَانَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى
أَنَّهُمْ سَيُظَلُّونَ فِي مَذَلَّةٍ وَمَسْكَنَةٍ ، وَلَنْ تَرْتَفِعَ لَهُمْ رَأْسٌ إِلَّا فِي ظِلِّ
حَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَعَهْدٍ مِنْهُ ، وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُعَاهِدُونَهُمْ عَلَى
النُّصْرَةِ وَالتَّايِيدِ وَالْحِمَايَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رِيكُكُمْ .. ﴾ (٨) ﴿

[الأنعام]

(١) الْبَأْسُ : الشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ ، وَيُقُولُ نَعَالِي : ﴿ وَجِئْنَا بِالنَّاسِ^(١) ﴾ [البقرة] أَي : وَلَتِ الْحَرْبُ
الشَّدِيدَةُ . [الْقَامِرُ الْقَوِيمُ ٥٢/٦] .

(٢) حَصِيرًا : مَحْصُورًا وَمَحْصَرًا ، وَأَصْلُ الْحَصْرِ وَالْإِحْصَارُ : الْمَنْعُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مِلَّةٌ :
حَصْرٌ] . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٦/٢) : « حَصِيرًا أَي : بِمَنْعِهِ وَمَحْصَرًا وَسَجَنًا
لَا مَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهُ » .

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذي ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتي من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : ﴿ رَبِّكُمْ .. (٨) ﴾ [الاسراء]

لأن الرب هو المتولى للتربية والمتكفل بضمان مقومات الحياة ، لا يضمن بها حتى وإن كان العبد كافراً ، فالكل أمام عطاء الربوبية سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

الجميع يتمتع بنعم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو سبحانه لا يزال ربهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَرْحَمَكُم .. (٨) ﴾ [الاسراء]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان في موقف يستحق فيه الرحمة ، واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون في حضن الرحمة الإيمانية الإسلامية التي تُعطى لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة ، كالتى كانت لهم في مدينة رسول الله ، يوم أن أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلت هذه المعايشة لدرجة أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يقترض لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفي هذا حكمة يجب أن نعيها ، وهى أن المسلم قد يستنمى أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودى فسوف يلجأ فى طلب حقه وإذا نسى رسول الله سيذكره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله ﷺ ويغالطونه مكرراً ، وقد حدث أن وفى رسول الله ﷺ لأحدهم دينه ، لكنه أنكره وأتى

سورة الاسراء

٨٣٧١

يطلب به من جديد ، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول :
أبغضني شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزم الموقف في
حضور أحد الصحابة ، واسعه خزيمه ، فهبَّ خزيمه قائلاً : أنا
يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودي ديتنه ، فسكت
اليهودي ولم يرد ولم يجادل ، فدل ذلك على كذبه . ويكاد العريب أن
يقول : خذوني .

لكن رسول الله ﷺ عندما اختلى بخزيمه بعد أن انتصرف الدائن
قال : يا خزيمه ما جعلك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا
ألقى لليهودي ديتنه ؟ فضحك خزيمه وقال : يا رسول الله أأصدقك
في خبر السقاء ، وأكذبك في عدة دراهم ؟

فسرَّ رسول الله من اجتهد الرجل ، وقال : « مَنْ شَهِدَ لَهُ خَزِيمَةٌ
فَحَسْبُهُ » ^(١) .

ثم يهتد الحق سبحانه بنى إسرائيل ، فيقول : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ
عَدَاً .. (أ) ﴾ . [الإسراء]

إنَّ عُدْتُمْ للفساد ، عُدْتُمْ ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من
جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على
الذنوب في الدنيا يُبرئهم من عذاب الآخرة .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين (١٨/٢) والطبرانی في المعجم الكبير (٦٠١/٤)
من حديث خزيمه بن ثابت : قال الهيثمي في المجمع (٢٢٠/١) : « رجاله كلهم ثقات » .

فالعقوبة على الذنب التي تُدْرَى المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حُضْنِ الإسلام ، والأَ لَأَسْتَوِي مَنْ أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ مَعَ مَنْ لَمْ يُقَمْ عَلَيْهِ الْحَدُّ .

فلو سرق إنسان وقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقَطَّع يده ، فلو استَوَوْا في عقوبة الآخرة . فقد زاد أحدهما عن الآخر في العقوبة . وكيف يستوى الذي قُطِعَتْ يده . وعاش بذلَّتْها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة ؟

هذا إن كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذي بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا رجوعَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعْطى صاحبها من عقوبة الآخرة ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨٨ ﴾ [الاسراء]

﴿ جَعَلْنَا ﴾ فعل يفيد التحويل ، كان نقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أى : صَبَرْتَهُ وَحَوَّلْتَهُ . فماذا كانت جهنم لو لم تُحوَّلْها الحق سبحانه حصيراً ؟

قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ في هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هي بمعنى خَلَقْنَا ، أى : خَلَقْنَاهَا هَكَذَا ، كما نقول : سبحانه الذي جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّلَه الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : ﴿ حَصِيرًا ٨٨ ﴾ [الاسراء]

الحصير فراش معروف يُصنع من القش أو من نبات يُسمى

السَّعَرُ ، والآن يصنعه من خيوط البلاستيك ، ويسمى حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من السَّعَر . وهو التضيق في المكان للمكين ، وفي صناعة الحصير يضعون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أن تتماسك ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نقرش الحصير ؟ نقرش الحصير ؛ لأنه يحبس عنا القَذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا ، إذن : الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمنتجع لمادة (حصر) في القرآن الكريم يجدها بهذه المعاني ، يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَلَخ^(١) الْأَشْهُرُ الْحَرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَلَّوْهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ .. ﴾ [التوبة] أي : ضيقوا عليهم .

وقال تعالى في فريضة الحج : ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَمْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .. ﴾ [البقرة] أي : حبستم ومنعتم من أداء الفريضة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء]

أي : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهي لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه ؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا^(٢) .. ﴾ [الكهف]

(١) انشَلَخ الشهر : انقضى وانتهى ، [القاموس القويم ٢٢٢/١] .

(٢) قال ابن الأثيري : سراديقها : سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . وقال الكلبي : هُوَ تَخْرُجُ مِنَ النَّارِ فَيُحِيطُ بِالْكَافِرِ كَالْمَطْبُورَةِ ، وَخَرُجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَمِيْعٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لِسَرَادِيقِ النَّارِ أَرْبَعُ جُفَرٍ ، تَحْتَفُ كُلُّ جِدَارٍ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١٢٤/٥) : « وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّرَادِيقَ مَا يَطُو الْكَافِرَ مِنْ دُخَانِ أَوْ نَارٍ ، وَجَنَّةٍ مَا وَصَفَ » .

فلا يستطيعون الخروج ، فإن حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا .. ﴾ (٢٠) ﴿ [السجدة]

وفى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (٨) ﴿ [الإسراء]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجزموا في الدنيا يصتَمُونَ في أنصارهم واتباعهم من الأقرباء ، ويدخلون في حضائنة أهل الباطل ، أما في الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ [الصافات]

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجعله آية أرضية يمكن إقامة الدليل عليها ، حيث خرق له الفاموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المنراج وخرق له الفاموس فيما لا يعلمه القوم كان أدعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد ﷺ لربه هي التي أعطته هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح - عليه السلام - عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخلق للخالق ، وعبودية الخلق للخلق : لأن العبودية للخلق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خير سيده .

ثم تحدث الحق سبحانه عن بني إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد في الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولعن لساء ، وكلُّ له عمله دون ظلم أو جور .

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المنهج الإلهي المنزل من

السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مخلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١)

فَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْأُسْوَةَ الطَّيِّبَةَ فِي عِبَادَةِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ ، هَذِهِ الْعِبَادَةُ الَّتِي جَعَلَهَا يَسْرَى بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ يَصْعَدُ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ نُوحٍ فِي عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ فَكَرَمِ ذَرِيَّتِهِ مِنْ أَجْلِهِ ، فَطُيِّبَ أَنْ يَسِيرَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ ، وَأَنْ يَتَقَدَّى بِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمْ لله تعالى ، وَلِيَحْذَرُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ .

وَالَّذِي يَرَسُمُ لَنَا الطَّرِيقَ وَيُوضِّحُ لَنَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ ..﴾ (١) [الاسراء]
قَوْلُ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ..﴾ (١) [الاسراء]
هَلْ عِنْدَ تَزْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ قَدْ نَزَلَ ، لِيَقُولَ : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ؟

نَقُولُ : لَمْ يَكُنِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ قَدْ نَزَلَ ، وَلَكِنْ كُلُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ تُسَمَّى قُرْآنًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿لَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ﴾ (١٨) [الأنعام]
فَلَيْسَ الْمُرَادُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ ، بَلِ الْآيَةُ مِنَ الْقُرْآنِ قُرْآنٌ . ثُمَّ لَمَّا اكْتَمَلَ تَزْوِيلُ الْقُرْآنِ ، وَاكْتُمِلَتْ كُلُّ الْمَسَائِلِ الَّتِي تَضْمَنُ لَنَا اسْتِقَامَةُ الْحَيَاةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ..﴾ (٢) [المائدة]

فإن استشرف مُستشرف أن يستزيد على كتاب الله ، أو يأتي
بجدید فليعلم أن منهج الله مُنزّه عن النقص ، وفي غنى عن زيادتك ،
وما عليك إلا أن تبحث في كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصير إليه
من الخير .

قوله : ﴿ يَهْدِي .. ﴾ (٦)

[الإسراء]

الهداية هي الطريق الموصل لل غاية من اقرب وجه ، وبأقل تكلفة .
وهو الطريق المستقيم الذي لا التواء فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه
يهدي الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زادته هدى ، كما قال
سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَامًا تَقَرَّاهُمْ ﴾ (١٧)

[محمد]

ومعنى : ﴿ أَقْرَم .. ﴾ (٩)

[الإسراء]

أى : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمى أفعال التفضيل ،
إذن : فعندنا (أقرم) وعندنا أقل منه منزلة (قِيم) كان نقول :
عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْعَمَى ﴾ (١٠)

[الإسراء]

يدل على وجود (القيم) في نظم الناس وقوانينهم قوضعية ،
فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وقوانين حينما
تعضهم المظالم ويهتقون بها ، فيفتنون تقنيات تمنع هذا الظلم .

ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه
وإن كان قِيماً فما وضعه الله أقرم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أن

سورة الانزلة

٨٣٧٧

تُعْضُ بِشِرِهِ مُعْجُجٌ غَيْرُ قَيِّمٍ ، وَإِلَّا لَنَمَازَا يُلَاقِيكَ لِلْقَيِّمِ ؟

أما منهج السمعاء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ،
فهناك فرق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب
القوانين الوضعية يُعدّلون نظمهم لعلاج الأمراض التي يَشْفُونَ بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدَثَتْ غِيظَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَحْصَابَتِهِمْ بَعْضُ الدَّاءَاتِ نَتِيجَةُ انْصِرَافِهِمْ عَنْ مَنِهْجِ رَبِّهِمْ نَقُولُ لَهُمْ :
عَرِّدُوا إِلَى الْمَنِهْجِ : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْرَبُ﴾ (١)
[الإسراء]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم ذروني ما حدث معنا في
مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدَ المستشرقين عن قول
الحق تبارك وتعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢)
[التوبة]

وفي آية أخرى يقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣)
[التوبة]

فكيف يقول القرآن : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (٤)
[التوبة]

في حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى ؟

فقلتُ له : لو تأملت الآية لوجدتُ فيها الردَّ على سؤالك ، فالحق
سبحانه يقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٥)
[التوبة]

ويقول : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٦)
[التوبة]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور

اتِّبَاعَ ، وَلَمْ يَقُلْ الْقُرْآنُ : إِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا سَيُؤْمِنُونَ .

وَمَعْنَى الظُّهُورِ هُنَا ظُهُورُ حُجَّةٍ وَظُهُورُ حَاجَةٍ ، ظُهُورُ نَظْمٍ وَقَوَانِينٍ ، سَتَضْطَرُّهُمْ أَحْدَاثُ الْحَيَاةِ وَمَشَاكِلُهَا إِلَى التَّخَلُّى عَنْ قَوَانِينِهِمْ وَالْأَخْذَ بِقَوَانِينِ الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا فِيهَا حَسَاكُنَّهُمْ .

فَنَظَامُ الطَّلَاقِ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي كَثِيرًا مَا هَاجَمُوهُ وَانْتَقَدُوهُ ، وَرَأَوْا فِيهِ مَا لَا يَلِيقُ بِالصَّلَاقَةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَلَكِنْ بِمَرُورِ الزَّمَنِ تَكْشَفَتْ لَهُمْ حَقَائِقُ مُؤَلِمَةٌ ، وَشَقَى الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ لَعْدَمِ وَجُودِ هَذَا الْحَلِّ فِي قَوَانِينِهِمْ ، وَهَكَذَا أَلْجَأَتْهُمْ مَشَاكِلُ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ لَأَنْ يَقْنَنُوا لِلطَّلَاقِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَقْنِينَهُمْ لِلطَّلَاقِ لَيْسَ حُجَّةً فِي الْإِسْلَامِ أَوْ اقْتِنَاعًا بِهِ ، بَلْ لِأَنَّ لِنَبِيهِمْ مَشَاكِلَ لَا حَلََّ لَهَا إِلَّا بِالطَّلَاقِ ، وَهَذَا هُوَ الظُّهُورُ الْمُرَادُ فِي الْآيَتَيْنِ الْكَرِيمَتَيْنِ ، وَهُوَ ظُهُورُ بِشَاهَدَتِكُمْ أَنْتُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ مُسْتَجَاوُونَ فِي حَلِّ قَضَايَاكُمْ لِقَوَانِينِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا .

وَمِنْ هَذِهِ الْقَضَايَا أَيْضًا قَضِيَّةُ تَحْرِيمِ الرِّبَا فِي الْإِسْلَامِ ، فَمَعَارِضُهُ وَانْكَرَاؤُهَا هَذَا التَّحْرِيمِ ، إِلَى أَنْ جَاءَ « كِتَابُ » وَهُوَ زَعِيمٌ اقْتِصَاصِي مِنْهُمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : اتَّبِعُوا ، لِأَنَّ الصَّلَاحَ لَا يُوْدَى وَطِيفَتُهُ كَامِلَةٌ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا إِذَا انْخَفَضَتِ الْقَائِدَةُ إِلَى صَفَرٍ .

سُبْحَانَ اللَّهِ ، مَا أَعْجَبَ لَجَجِ هَؤُلَاءِ فِي خُصُومَتِهِمْ مَعَ الْإِسْلَامِ ، وَهَلْ تَحْرِيمُ الرِّبَا يَعْنِي أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تَقْطَعُ الْقَائِدَةُ إِلَى صَفَرٍ ؟ إِنَّهُمْ يَعُودُونَ لِمَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى رَغْمًا عَنْهُمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ .

وَلَا يَخْفَى مَا فِي التَّعَامُلِ الزَّيْوَى مِنْ سَلْبِيَّاتٍ ، وَهَلْ رَأَيْنَا دَوْلَةً اقْتَرَضَتْ مِنْ أُخْرَى ، وَاسْتَطَاعَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ أَنْ تُسَدِّدَ حَتَّى الْقَسَاطَ

الفائدة ؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفلكم خداماً ، فالألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التي ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَصَتْهُمْ قَتَلُوا لها .

فظهر دين الله هنا يعني ظهور نظم وقوانين ستضطربهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور أئباع .

إذن : فبنتج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأهدى ، وفي القرآن الكريم ما يوضح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله ﷺ .

وهذا في قصة مولاه « زيد بن حارثة »^(١) ، وزيد لم يكن عبداً ، إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة - رضي الله عنها - التي وهبته بدورها لخدمة رسول الله ﷺ .

فكان زيد في خدمة رسول الله ﷺ إلى أن علم أهله بوجوده في مكة فاتوا ليأخذوه ، فما كان من رسول الله ﷺ ، إلا أن خُبره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختر زيد البقاء في خدمة رسول الله ﷺ .

(١) هو : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي : صحابي . اختطف في الجاهلية صغيراً . واشترته خديجة بنت خويلد لوعبته إلى أن نزل ﷺ حين تزوجها ، فثبته واعتقه وزوجه بنت عمته . جعل له الإمارة في غزوة مؤتة فاستشهد فيها . توفي ٨ هـ .

الله وآثره على أهله . فقال ﷺ : « فما كنت لأختار على من اختارني شيئاً » ^(١) .

وفي هذه القصة دليل على أن الرقي كان مباحاً في هذا العصر ، وكان الرقي حضنة حنان ورحمة . يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، ياكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يكلفه ما لا يطيق . وإن كلفه أعانه ، فكانت يده بيده ^(٢) .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد ﷺ وبين زيد : لذلك أثره على أهله ، وأحب البقاء في خدمته ، فرأى رسول الله أن يكافئه زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد » ^(٣) .

وكان التبني شائعاً في ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أن يحرم التبني ، وأن يحرم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول

(١) أورده ابن حجر العسقلاني في كتاب : الإصابة في تمييز الصحابة ، (ترجمة رقم ٢٨٨٤) في ترجمة : زيد بن حارثة الكلبى .

(٢) أخرج البخارى في صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم في صحيحه (١٦٦١) من حديث أبي زر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له : « مم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فأنفسهم مما تاكلون ، وأنفسهم مما تلبسون . ولا تكلوهم ما يلبسهم . فإن كلفوهم فأنفسهم » .

(٣) ذلك أن رسول الله ﷺ قال : « أشهدوا أن زيداً ابنى برئى وأبنته » . أورده ابن حجر في الإصابة ترجمة رقم (٢٨٨٤) فسمى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَدْرَاهُمْ لِبَنَاتِهِمْ لِسَانُ اللَّهِ ﴾ [الاحزاب] . ثم إن رسول الله ﷺ زوج زيداً ابنة حمته زينب بنت جحش ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلُوبُ غُلِبَتْ بِاللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَلَيْسَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاقِعٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلٰى الْمُؤْمِنِينَ خَرَجَ فِي أَرْوَاحِهِمْ إِذَا قُضُوا إِلَيْهِمْ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْرُوراً ﴾ [الاحزاب] .

سورة الاحزاب

٨٣٨١

الله ﷻ : ﴿ادْعُهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ..﴾ (٥)

[الاحزاب]

والشاهد هنا : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ..﴾ (٥)

[الاحزاب]

فكان الحكم الذي أنهى التبنّي ، وأعاد زيدا إلى زيد بن حارثة هو
الاقسط والاعدل ، إذن : حكم الرسول ﷺ لم يكن جوراً ، بل كان
قسطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشري يفضله ما كان من عند الحق سبحانه
وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبه الأصلي ، وأصبح الناس يقولون « زيد
ابن حارثة » . فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِمَ من شرف الانتساب
لرسول الله ﷺ فعرضه الله تعالى عن ذلك رسماً لم يتلقه صلبى
غيره ، هذا الرسام هو أن ذكر اسمه في القرآن الكريم ، وجعل الناس
يتكلمون به في قوله تعالى : ﴿لَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْراً
زَوَّجْنَاكَهَا ..﴾ (٢٧)

[الاحزاب]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : ﴿يَهْدِي إِلَيْنِ آلِفَ الْوَحْدِ ..﴾ (٦)

[الاسراء]

لأن مقتضى المنهج القرآني يجده يُقدِّم لنا الاقوام والاهدل
والأوسط في كل شيء . في العقائد ، وفي الاحكام ، وفي القصص .

ففي العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليُجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ
ينكر وجود إله في الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدد الآلهة . فجاء
الإسلام وسطاً بين الطرفين ، جاء بالاقوام في هذه المسألة ، جاء
ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو اقوم وأوسط ، فاللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فكأن يدّ وسمع وبصر ؛ لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا ، وليس بصره كبصرنا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى] وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبهة الذين شبهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأولوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : ﴿رَكَائِنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب تغفل عنها ، وتعرض عن تدبرها والانتفاع بها ، ولما نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذكّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك مستفتح لنا الباب الذي يثري حياتنا ، ويوفّر لنا قواف الحياة ومنعتها .

فاللحق سبحانه أعطانا مقومات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فعن أراد الكماليات لنحيطه أن يعمل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متاملة في ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحابها إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية . وسهّلت عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثقل وجده

سورة الأعراف

٨٣٨٢

يتحرك بسهولة إذا رُضع تحت شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكَّنته من نقل أضعاف ما كان يحمل .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوة مُحركة عندما شامد القدر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالم الذي اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء فسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكي عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفة ، لاحظ أن عينه قد برئت ، فبحث في هذه المسألة حتى توصل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخلق ، ويمرون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أهد له كل متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إنْ أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ (٦٦) ﴿ (٦٧) ﴾ (ممد)

والاستعمار أن تجعلها عامرة ، وهذا الإصرار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواقف متعددة تتكاثف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني

وهذا يهدم ، إذن : لابد أن تُنظَّم حركة الحياة تنظيمًا يجعل المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاوض ولا تتعارض .

ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْعِزَّةِ .. ﴾ (١٧) [الشورى]

وإن كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبر في آيات الله في كونه ، والبحث فيسبها لنصل إلى أسرار ما غُيِّبَ هنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسس وتتبع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغيبهم .

وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً : لأن الله تعالى يريد أن يُثري حياة الناس في الكون ، وهب أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلي عنها ، فلن تتبعت هذه السيئة الواحدة فربما أزهتك في كل حسناته ، وحرمتك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تقاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكك الانتفاع به .

وهب أن صانعاً بارهاً في صنعه وقد احتجته ليقوى لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهك هذا في صنعتك ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره . وإن كان أقل منه مهارة .

وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبع

غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبع غيبك والبحث عن أسرارك : ولذلك ما أنعم الله على عبده نعمة أعظم من حفظ الغيب عنده هو : لأنه رب ، أما البشر فليس فيهم روبرية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لاحدهم غيب أخيه أو عيب من عيوبه أذاعه وفضحه به .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طلعة^(١) في استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طلعة في تتبع أسرار الناس والبحث عن غيبهم : لأنك إن تتبعت غيب الناس والتعمست عيوبهم حرمت نفسك من مصادر يمكن أن تنتفع بها .

فالحق سبحانه يريد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البقاء ، التنافس الذي يثرى الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢٦) [المطفلين]

كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدد ليكون مثله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغل والحق والكراهية ، بل تنافس من يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس من لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن

(١) الطلعة : كثرة التطلع إلى الشيء . ومنها نفس طلعة : كثيرة الميل إلى هوانا تضييقه حتى تهلك صاحبها . [لسان العرب - مادة : طلع] .

نرى الكثير منا يغضب وتثار حفيظته إن كان له عدو ، ويراه مصدر شر وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار..

وهو مع ذلك لم يستغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لانتفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ، لأن صديقك قد يتنافقك أو يداهلك أو يخدعك .

لما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبُوة ليذيعها ويُسمِّع بك ، فيجملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

عِدَائِي لَهُمْ فَضَّلْ عَلَيَّ وَمِنَّةً فَلَا أَبْعَدُ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعْدَاءِ
هُمْوُ بِحُؤَا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَّبْتُهَا وَمَنْ نَاقَسُونِي فَانْكَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة . حتى في الأعداء ، ونجد في هذا التنافس العثمر الذي يُدري حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدَّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمي الضعيف من بطش القوى ، فجاء منهج الله تعالى ليُكفِّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حقه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

سورة الاسراء

٨٣٨٧

ثم حذّر القوى أن تُطْفِئَ قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ،
وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه ، بل هي عَرْضٌ سوف يزول ،
وسوف تتبدل قوته في يوم ما إلى ضَعْفٍ يحتاج معه إلى العون
والمساعدة والحماية .

وكان الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمي الضعيف من قوتك
الآن ، لأحمي ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس في هذا كله ما هو اقوم ؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله في مجال
الإنفاق ، وتصرف المرء في ماله ، والمتأمل في هذا المنهج الاقوم
يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذير فيه ولا تقتير^(١) .

ولا شك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثري حياته ، وأن يرتقى
بها ، ويتمتع برفها ، ولا يُتاح له ذلك إن كان مُبذراً لا يُبقي من
دخله على شيء ، بل لا بدّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجد في
جمعته ما يمكنه أن يُثري حياته ويرتقى بها ويوفّر لاسرته كماليات
الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الاقوم في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا
أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٢٧﴾ [مذوقان]

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولًا إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
الْيَسَطِ فَتُنْكَدَ مَتُومًا مَّحْسُورًا ٢٨﴾ [الاسراء]

(١) قتر على ماله : ضيق عليهم في النفقة . والإقتار : التضييق على الإنسان في الرزق .
[لسان العرب - مادة : قتر] .

فلإنسان في حياته طمرحات تتابع ولا تنتهى ، خاصة في عصر
كثرت فيه المغريات ، فإن وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ،
فعليه إذن ألا يُبدد كل طاقته ، وينفق جميع بخله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البخل والإمساك :
لأن البخل مذموم ، والبخل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البخل
سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع ،
فالمعسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء ، فيسهم
ببخله في تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يشقى به
مجتمعه .

إذن : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير في أوسط
الأمور ، وهذا هو الأقوم الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي .

وكذلك في مجال المأكول والمشروب ، يرسم لنا الطريق المعتدل
الذي يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام
والثَّخْمَةِ ، قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢٦) ﴿

[الأعراف]

فقد علمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قدر طاقة
الوقود الذي يحتاجه جسمه لا يشتكى ما يشتكى أصحاب الإسراف
في المأكول والمشرب .

والمعامل في حال هؤلاء الذين ياكلون كل ما لذ وطاب ،
ولا يحرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، ترى هؤلاء
عند كبرهم وتقدم السن بهم يحرمون بأمر الطبيب من تناول هذه

شُكْرُ الْأَمْرِ

٨٢٨٩

المُلَذَّات ، فترى في بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، في حين يأكل سيده أنواعاً معددة لا يتجاوزها ، ونقول له :
لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها في بداية الأمر ، فلا بدُّ أن تُحرَمَ منها الآن .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « كُلُوا واشربوا وتصدقوا ،
والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة »^(١)

وأيضاً من أسباب السلامة التي رسمها لنا المنهج القرآني ، ألا يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذّة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيع كل شيء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذي يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبّرنا هذا المنهج لوحدته في أي جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

في العقائد ، في العبادات ، في الأخلاق الاجتماعية العامة ، في العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣٨) [الأنعام]

هذا المنهج الإلهي هو أقوم المتاهج وأصلحها ؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق ، ويعلم ما يصلحهم ، كما قلنا سابقاً :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨١/٢ ، ١٨٢) ، وابن ماجه في سننه (٢٦٠٥) والنسائي في سننه (٧٩/٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

إن الصانع من البشر يعلم صنّعه ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملت الآلة حسب قانون صانعها أدت مهنتها بدقة ، وسكنت من الأعطال ، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانتته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٤) [المك]

فأفقه الناس في الدنيا أنهم وهم صنّعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، وياخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهي قرآنيين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وجه للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل . ثم يقول تعالى : ﴿ رَيْشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ الْعَالَمَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١٥) [الاسراء]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهي يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيماني ، وهذه نعمة في الدنيا ، وإن كانت وحدها لكافّة كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبَشِّرُنَا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها . فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمَي الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سرّتها فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلامة والتعايش الأمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٦) [البقرة]

ويقوله تعالى في آية أخرى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَغِلُّ وَلَا

يُخْلِي﴾ (١٢٢) ﴿

[طه]

ويقول تعالى : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَسَنًا طَيِّبًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣) ﴿

[النحل]

وفي الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي
فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا^(١) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَصْحَابًا﴾ (١٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَصْحَابًا
وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ

نُنَسِّي﴾ (١٢٦) ﴿

[طه]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على
منهجه خيري الدنيا والآخرة ، ففي المقابل جمع لأعدائه المعرضين
عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلماً منه ، فهو سبحانه مُنْزَهُ
عن الظلم والجور ، بل عدلاً وقسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

[الإسراء]

ومعنى : ﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ .. (٩)﴾

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل
تُبْقَى الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

[الإسراء]

ويقوله : ﴿أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٩) ﴿

فلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يأت

(١) الضنك : الضيق من كل شيء . والمعيشة الضنك : الضيقة غير المتسعة . [القاموس

بصفة أفضل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فوصف الأجر بأنه كبير يدل على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عظم الأجر من الله تعالى .

أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم . كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وصف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .

ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفرض الله علينا أكبر من أي عمل دنيوي ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو معين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى ملابس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فرض الله أكبر من كل كبير .

ولاهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : ﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا اِلَيْهِ ذِكْرَ اللّٰهِ وَذُرُوْا الْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ١٥ۙ فَاِذَا قُضِيَتِ الصَّلٰوةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الْاَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ وَاذْكُرُوْا اللّٰهَ كَبِيْرًا لَّعَلَّكُمْ تَفْلَحُوْنَ ١٦ۙ ﴾ [الجمعة]

والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال : لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ،